فى محكمة الجن

للدكتور زكى مبارك

مع الاعتراف بأن القلم فى يد الكاتب نعمةٌ لا يماثلها شىء من نفائس الوجود ، فأنا كثير الضجر مما يجنى علىّ قلمى ، لأنه يتيح الفرص لمن يسرهم إيذائى ، ولأنه يجعلنى دائماً على بال الناس ، ويا ويحَ مَن يُشغل به الناس !

زُرت مرةً إحدى المدارس الثانوية فوجدت ناظرها رجلاً مجهولاً من الدوائر الأدبية والاجتماعية ، مع أن المرء لا يصل إلى مثل مركزه إلا بعد ظهور وبروز فى الأدب وفى المجتمع ، فقلت فى نفسى : « هذا هو الرجل السعيد . إن منصبه يضارع منصبى من الوجهة الرسمية ؛ وقد يكون راتبه أضخم من راتبى ، لأنه قديم العهد بخدمة وزارة المعارف . ولكنه أسعد منى ، لأنه بعيد من المجتمع ، ومجهول من الجرائد والمجلات ، فلا يتحدث عنه متحدث ، ولا يتزيد عليه قارىء لا يفهم أسرار البيان »

ثم قلت : « أين حظى من حظ هذا الزميل ؟ إن مقالاتى تؤخذ منها قصاصات لتقدَّم إلى وزير المعارف ، فأنا على بال الوزير من يوم إلى يوم ، أو من أسبوع إلى أسبوع . ومعنى هذا أنى أقدم سريرتى قبل السؤال عما فيها من مجاهيل »

وعلى مَن يقع اللوم ؟ يقع علىّ وحدى ، فمن حق أى وزير أن يتعقب ما يصدُر عن مساعديه من أفكار وآراء ، ومن واجبه أن يناقشهم فيما يستوجب النِّقاش

والآفة الفظيعة أنى مُكثِر ، وقلّما يَسلم المكثار من العِثار . يضاف إلى هذا أن قلمى يجول فى شجون من الأحاديث تمسّ طوائف من المعانى الشوائك ، فأنا أعرّض نفسى لتاعب لن تنقضى إلا يوم أتوب من صحبة القلم ، ولن أتوب !

هل أصدُق كل الصدق فأذكر أنى شعرت بدمعة تساور جفونى يوم زرت ذلك الناظر السعيد ؟

لقد تحزّنت وتوجعت ، لأنى عرفت أن القلم لا يغنينى فى حياتى ، كما يغنى أمثالى فى الأمم التى يُعَدُّ قراؤها بالملايين ، فلم يبق إلا أن أكون من الموظفين !

أين أنا مما أريد ؟

أنا أريد النص على أن قلمى ساق إلىّ متاعب أخطر مما كنت أعانى ، فقد نقلنى من معاداة الإنس إلى معاداة الجن ، ونعوذ بالله من كيد الشياطين !

وخلاصة القصة أنى تحدثت عن « جنّية » سامرتها ليلةً بالإسكندرية مسامرة الحبيب للمحبوب ، وأنا أجهل أن حديثى عنها ستكون له عقابيل ... فماذا وقع بعد ذلك الحديث ؟

أطفأت النور بالغرفة التى تطلّ على الصحراء ، لأستوحى القمر والنجوم فى هدوء وسكون ، ثم راعنى أن أرى الغرفة تضىء ، وأن أرى خلائق لم يكن لى بمثلها عهد ، فهتفتُ : أتوا دارى فقلت : مَنُونَ أنتم ؟

فقالوا : الجنُّ ، قلت : عِمُوا مساء

— محكمة !

— أية محكمة ؟

— محكمة الجنّ !

— وفى هذه الأنوار ؟

— هذه أنوار لا يراها طير ، فلا عليك !

— وهذه الوجوه ؟

— هى وجوه لا يراها غيرك

— وماذا تريدون ؟

— نريد محاسبتك على ما وقع منك

— وما ذا وقع منى ؟

— هل نسيتَ ما نشرتَ بمجلة الرسالة ؟

— عماذا ؟

— عن الجنيّة المحبوبة !

— ذلك خيال فى خيال

— ونحن نحاسب على الخيال ، لأنه صورة مصغّرة من الحقيقة الواقعية ، فأنت محاسبٌ على اقتراف الإثم بمنازلة جنية عذراء .

— من حديثى بمجلة الرسالة عرفتم ما اقترفتُ ؟

— عرفنا ما اقترفتَ قبل أن تنشر حديثك

— وكيف ؟

— لأننا نراكم ولا ترونا

— وما الذى منع من عقد المحكمة قبل نشر الحديث ؟

— الإثم عندنا يحتاج إلى برهان مكتوب

— وحديثى هو البرهان ؟

— نعم ، ثم نعم !!

— أتسمعون كلمة الحق ؟

— قد نسمع !

— يجب أن تسمعوا ، فاسمعوا . أنتم تقفون من الحياة موقف المتفرجين ، والمتفرج يرى الممثل ولا يراه الممثل ، فالممثل آمر والمتفرج مطيع ، أو هو كاتب والمتفرج قارىء

— أتقول إن الإنس أفضل من الجن

— هو ذلك ، وإلا فأين نصيبكم فى خدمة الآداب والفنون ؟

— نحن الذين أقمنا عرش سليمان

— وأين عرش سليمان ؟

— بقيت منه المعانى

— هى معان إنسية لا جنية ، لأنها متصلة بالناس لا بالجان

— ونحن الذين ألهمنا شعراء الجاهلية

— وهم لهذا جهلاء !

— أنت تحاكم ، فما هذه الفطرسة العاتية ؟

— أنتم تحاكمونى ، يا جماعة الجن ، ولم يكن فيكم من يتسم بشجاعتى ؟

— وما شجاعتك ؟

— أنتم تعرفون شجاعتى ، فما تنكرت ولا تلثمت كما تتنكرون وتتلثمون ، ولاسمح ضميرى بأن أرى الناس ولا يرونى لأنى أحب أن تكون أعمالى فى العلانية لا فى الخفاء

— والجنية التى سرقتها منا ؟

— لم أسرقها منكم ، ولن أردها إليكم

— أطع محكمة الجن

— وهل أطعت محكمة الإنس حتى أطيع محكمة الجن ؟

— سنؤدبك إن تماديت فى العصيان

— لا يستطيع مخلوق أن يؤذينى ، إن حفظت الأدب مع الله فى الترفق بنفسى

— حرِّر الجنية من حبك

— لن أحررها من حبى ، فما أرضى بأن يضيع نصيبها من شرف الوجود

— لا نفهم شيئاً مما تقول

— أنا أقول بأن الإنس أفضل من الجن ، لأن الإنس مجاهدون والجن رقباء ، والمجاهد أفضل من الرقيب

— والجنية المخطوفة ؟

— لن تكون لكم ولو عقدتم ألف محكمة

— وإن اغتصبناها منك ؟

— لن تغتصبوها منى ، بعد أن سمعت أشعارى ، وهى أشعار نظمتها بدم القلب

— أطع محكمة الجن

— لن أطيع

— وإذا حكمنا عليك ؟

— سيعييكم التنفيذ !

وفى هذه المعمعة برزت الجنية وهى تصرخ : أنا الجانية على نفسى ، إن كان من الجناية أن أخرج إلى الأنوار بعد طول القرار فى غياهب الظلمات

— ماذا تقولين يا حمقاء ؟

— معشوق إنسىٌّ ، يا سعادة الرئيس

— والإنس أفضل منا ، ياشقية ؟

— نعم ، لأن أعمالهم فى العلانية

— وأعمالنا ؟

— أعمالنا فى طيات الخفاء

— لست منا ولا نحن منك

— أنا من معشوق ، ومعشوق منى ، فاذهبوا عنى

— ونهزم أمام الناس

— كما ينهزمون حيناً أمام الجان ، والجروح قصاص

* * *

ثم انفضّت محكمة الجن بدون تعنت يحوج إلى الاستعانة

بالحامين فعرفت أن الجن لا يزالون على الفطرة الأولية فى إدراك الحقائق البديهية ، وعرفت أيضاً أنهم يخافون من الإنس ، وكان معروفاً أنهم يخيفونَ ولا يخافون

ذهبت الأنوار المجلوبة بحضور الجن ، وعادت الغرفة إلى الضوء المرسل من القمر فى لطف ، وبقيت الجنية بجانبي وهى لا تكاد تصدق أنها نجت من تعقب أولئك العماليق

— هل صرنا فى أمان ؟

— أنتِ صرت فى أمان

— وأنتَ ؟

— ألم تعلمى أنى أقيم فوق جبل من البارود ؟

— أتخاف وأنا معك ؟

— أنا أخاف لأنك منى ، فقومُك لن يسكتوا عنى ، وقد يستنصرون بإخوانهم فى الشام والعراق

— المعروف عندنا أن شياطين الشام والعراق من أصدقائك

— ومن هنا أخاف

— تخاف من أصدقائك ؟

— وممن أخاف ؟ هل أخاف من أعدائى وأنا أملك البطش بهم حين أريد ؟

وانتقل الحوار إلى شؤون متصلة بالجمال فسألتنى الجنية عما يستهوينى من جمالها فقلت :

أنا أحب فيك هذا الصوت الناعم المبحوح ، وأشتهى أن تتكلمى فى كل وقت .. أشتهى أن تكون حياتك حديثاً فى حديث ، لا تسكتى ، فما رأيت أندى على قلبي وروحى من بُغامك الذى يُشبه وسوسة الحبَب عند اضطرام الكؤوس . تكلمى لأرى نعيم الفردوس ممثّلاً فى نبراتٍ هنّ أعذب وأطيب من همسات الأمانى فى الصدر الحزين

هذا الصوت يزلزل قلبي ، وأنا أسمعه وإن اعتصمتِ بالصمت

— كيف ؟ كيف ؟

— هُويّتُك الأصيلة هى هذا الصوت ، فأنت كالبلبل ، وهُوية البلبل فى الحَلق ، والله يزيد فى الخلق ما يشاء[1]

— لم تجب عن سؤالى !

— قلت إن هويتك فى الصوت ، وأنت دائماً فى بالى ، فأنا أسمعك فى كل وقت ، وإن غبتِ عنى

— إلى هذا الحد يفتنك صوتى ؟

— وإلى أبعد من جميع الحدود

— كنت تقول إنى أفتنك باللون

— متى ؟

— ليلةَ بتنا بالإسكندرية ، هل نسيت !

— لونك يفتن ، لأنه ينطق ، وهو يتموّج تموّج النبرات العِذاب . إن فى قدميك خطوطاً نواطق ، فى قدميك ، فى قدميك ، فماذا أقول فى المرمر الناطق وهو صدرك الجميل ؟

— زدنى ، زدنى

— زيدينى فتوناً لأزيدك جنوناً

— ماذا تريد منى بعد أن خاصمت فيك قومى ؟

— أريد أن تتكلمى فى جميع اللحظات

— وأين أجد ما أقوله فى كل وقت ؟

— تقرئين علىّ ما فى المكتبة من مؤلفات أدبية وعلمية ولغوية ، بالعربية والفرنسية والعبرية ، والأمر سهل ، فإن محصول مكتبتى لا يزيد عن عشرة آلاف ، وسنعبُرها ورقةً ورقة فى أقل من عشرَ سنين

— إلى هذا الحد تحبنى ؟

— وإلى أبعد مما أحبّ العباقرة من الإنس والجن فى جميع الأزمان

— أنا أرتعد من الخوف

— ومم تخافين ؟

— أخاف منك ، فدعنى أخرج لألحق بقومى

— لن تعرفيهم بعد اليوم ، ولن يكون لأحدٍ غيرى عليك سلطان ، فليجمع الجن جموعهم ليلقوني فى ساحة القتال ، ولتتمردى ما شاء لك الحق والطيش ، فلن يكون لك فى غير هذا البيت مكان

— وتحمينى من طغيانك ؟

— إذا اعترفت علانيةً بأن سلطان الجمال أضعف من سلطان البيان

زكى مبارك

(١) إشارة إلى القراءة التى ورد فيها « الحلق » بالحاء بدلا من الخاء